التقليد إلغاء للشخصية وتمهيد للخرافة

الدكتور طارق القناعي

المسلم الحر يبحث دائمًا عن أدواء الأمة المسلمة؛ ليعالجها بما يناسبها.
ومن الأمراض الخطيرة التي عانت الأمة الإسلامية منها كثيرًا وأحدثت شروخًا في الصف الإسلامي القائم على اتباع الكتاب والسنة: التقليد، وهذا المرض أصاب الدعوة الإسلامية في مقتل، ولا شك أن من يريد أن يخرج هذه الأمة إلى ساحات اليقين بالله وبرسوله وبهذا الدين يحذر من التقليد مبينًا آثاره وموضحًا أخطاره:

أولًا: أنه طريق محفوفة بالمخاطر:

التقليد طريق محفوفة بالمخاطر، وهو مثل رجلٍ يأتي إلى طريقين: إحداهما طريق واضحة بينة آمنة، على جنباتها النور، وتؤدي إلى مخرج محدد معلوم، والطريق الثانية مظلمة مليئة بالأشواك والمنحدرات والحفر والمستنقعات، ومع ذلك دخل هذا الرجل هذه الطريق؛ لأنه رأى غيره –ممن ليس معه شيء يميزه– دخل هذه الطريق فدخل خلفه، فصار يتخبط يمنة ويسرة حتى هلك.

وهكذا التقليد، فالإنسان قد يتبع أحدًا لتعصبه له كأن يكون أباه، أو شيخ قبيلته، أو شيخ مذهبه الذي لا يرضى بغيره بدلًا وإن ظهرت الأدلة، فلا يدري أين يقوده هذا المقلد؛ إلى الحق والجنة أم إلى الضلال والنار!

وهذا من جنس ما وقع فيه المشركون، فقد أداهم التقليد إلى الكفر والضلال، والتقليد داخل الشريعة الإسلامية هو من ذلك الجنس سواء؛ يبين ذلك ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه بعد أن سرد الآيات التي فيها ذم التقليد كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] قال: «وقد احتج العلماء بهذه الآيات

في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من جهة الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجل فكفر، وقلد آخر فأذنب، وقلد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملومًا على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضًا وإن اختلفت الآثام فيه، وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب قبل هذا وفي ثبوته إبطال التقليد أيضا، فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التي يجب التسليم لها، وهي الكتاب والسنة، أو ما كان في معناهما بدليل جامع بين ذلك»[١].

فلا فرق بين مقلدة الكفار ومقلدة الآباء وغيرهم، الذين يقلدون جهلًا وتعصبًا وليس لمعيارٍ صحيح ومسوغ شرعي سليم، وكلا التقليدين يؤديان إلى تخبط في العقائد والمنهج والأحكام، ومن ثم إلى الضلال والبدعة.

ثانيًا: أنه يؤدي إلى التفرق ويكثر من الاختلاف:

لا شك أن التفرق والاختلاف مما تنبذه الشريعة، وقد ذكر الله ذلك مرارًا في كتابه مثل قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

والتقليد مما يؤدي إلى التفرق والاختلاف، فكل أحد يدعي أن الحق مع مقلده، ولا يجمع الناس إلا الحق وسبيله، وقد أكد الله سبحانه وتعالى على ذلك فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الطرق الخارجة عن سبيل الله كما أنها يمكن أن تكون طرق الكفر والشرك، كذلك تكون طرق البدعة والضلال، والتقليد في الاثنين سواء، يقول ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد»[٢].

فالتقليد بحر عميق قل من ينجو منه، سواء كان ذلك في الأديان، أو حتى في المذاهب

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٧٨).

(٢) «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٦٤).



والفرق، يقول الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأمة في المذاهب على كثرة بالفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون»(٣).

ثالثًا: أنه يورث الخروج عن نصر الله وتوفيقه:

من أعجب ما يورثه التقليد أنه يخرج الإنسان عن توفيق الله سبحانه وتعالى؛ لذا نجد أممًا من الناس تتبع قادتها وتقاليد آبائها في عقائد واضحة البطلان، هشة في البناء العلمي، ضعيفة في الميزان العقلي، وكل ذلك لأن من اتبع غير سبيل الهدى بعد ظهور الدليل قد يحرمه الله من التوفيق، والله سبحانه وتعالى يقول في ذلك: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فالتقليد على هذا الحال مورث الابتعاد عن توفيق الله، يقول الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه والقائمين ببيان شرائعه ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما، فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولًا وأبان من أخلاقه لينًا لا يرضيه إلا اتباع بدعته، والدخول في مداخله، والوقوع في حبائله، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدى الله هو ما في كتابه وسنة رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة وجهالة بينة ورأي منها، وتقليد على شفا جرف هار، فهو إذ ذاك ما له من الله من ولي ولا نصير، ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة، وهالك بلا شك ولا شبهة»(٤).

رابعًا: أنه يورث الشحناء والتلاعن في الآخرة:

التقليد يورث الشحناء والتلاعن في الآخرة بين المقلد والمقلد، وقد ذكر الله ذلك في عدة مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ

(٣) «المنقذ من الضلال» (ص ١٠٨).

(٤) «فتح القدير» (١/ ١٥٨).

السلفية

﴿أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وغيرها من الآيات التي تؤكد العداء الشديد الذي يورثه هذا التقليد يوم القيامة، وأن من أراد أن يتخلص منه؛ فعليه باتباع الكتاب والسنة والسير على منهج السلف، وإن كان ولا بد فالصواب هو الأخذ بأقوال العلماء الربانيين مع الحرص على الدليل، ومتى ما تبين الدليل وجب ترك القول المخالف له، وبهذا يسلم الإنسان من مغبة التقليد.

خامسًا: أنه يورث إهمال العقل وتبني الخرافة:

التقليد يعمي عن إدراك الحقائق، ويعطل التفكير والاستنباط، ويدخل الأمة في متاهات الخرافة، فالمقلد جعل عقله أسيرًا لغيره، وعطل هذه النعمة العظيمة التي وهبه الله إياها، وأثر هذا نراه في الدنيا والدين، فكم من أمة تمسكت بتقليد من سبقوها فكررت الأخطاء، وسلكت الطريق نفسه، فكان مآلهم الفشل، وكذلك في أمور الدين؛ فإن الإنسان متى ما عطل عقله وقلد غيره في كل شيء وبلا بصيرة ولا إدراك فإنه سيكون أرضًا خصبة لقبول الخرافات، ومتى ما أردنا أن نخلص الأمة من ذل العكوف على القبور مثلًا، ومن وحل التمسك بالخرافات، يجب أن نشيع بينهم الأخذ بالدليل وفهمه وإدراكه والعمل به، وأن لا تكون العصبية مانعة لهم من قبول الحق عند وروده.

وأخيرًا: التقليد إلغاء للشخصية المسلمة؛ لأن الأصل فيها أن تكون متبصرة بما تعتقد وتقول، وتقليد أحد بعينه دون معيار صحيح وإنما لمجرد التعصب فعل من أفعال الجاهلية! يقول ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الغضب والتعصب لواحد معين من الأئمة وصف مذموم، من جنس فعل الرافضة، وهو من أفعال الجاهلية»(٥).

وهذا التقليد ليس خاصًا بالتقليد في الديانات الباطلة، بل ما أكثره عند كثير من

(٥) «الاتباع لابن أبي العز» (ص ٢٥).

السلفية



المسلمين ممن يتعصب لمذهب معين حتى لا يرى الحق في غيره! وإن جاءه الحق رفضه! وفي هذا يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] بعد أن قال: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، «فوصف اليهود بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور الناطق به والداعي إليه، فلما جاءهم الناطق به من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له، وأنهم لا يقبلون الحق إلا من الطائفة التي هم منتسبون إليها، مع أنهم لا يتبعون ما لزمهم في اعتقادهم. وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة معينة في العلم أو الدين، من المتفقهة أو المتصوفة أو غيرهم، أو إلى رئيس معظم عندهم في الدين غير النبي ﷺ، فإنهم لا يقبلون من الدين رأيًا ورواية إلا ما جاءت به طائفتهم، ثم إنهم لا يعلمون ما توجبه طائفتهم، مع أن دين الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقًا: رواية ورأيًا، من غير تعيين شخص أو طائفة غير الرسول ﷺ»[٦].

(٦) «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (١/ ٨٦-٨٧).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إذا ظفرت برجل واحد من أولي العلم طالب للدليل، محكم له متبع للحق - حيث كان، وأين كان، ومع من كان -؛ زالت الوحشة وحصلت الألفة.

ولو خالفك؛ فإنه يخالفك ويعذرك، والجاهل الظالم يخالفك بلا حجة ويكفرك -أو يبدعك- بلا حجة.

وذنبك: رغبتك عن طريقته الوخيمة وسيرته الذميمة.

فلا تغتر بكثرة هذا الضرب؛ فإن الآلاف المؤلفة منهم لا يُعدلون بشخص واحد من أهل العلم، والواحد من أهل العلم يُعدل بملء الأرض منهم».

«إعلام الموقعين» (٣/ ٣٠٧ بتصرف).

السلفية